رمزية الأنساق المضمرة في شعر رعد زامل
دراسة في النقد الثقافي

أ.د. علي حسين جلود م.م. عبير حسن مكحول
قسم اللغة العربية/كلية التربية للعلوم الانسانية/جامعة ذي قار

الملخص:

شكل الرمز الايقونة الاساسية التي ارتكز عليها الشاعر رعد زامل في نقد للواقع المظلم نقدا ثقافيا، فالتجأ الى رموز الطبيعة والرموز التاريخية للتعبير عن ذلك الواقع وترك للمتلقي فهم الصورة التي اراد ايصالها، لهذا يسعى البحث للكشف عن تلك الرموز التي تحمل انساقا مضمرة تخفي وراءها الظلم والقمع والفقر والقتل والحروب.

الكلمات المفتاحية: (النسق المضمر، الرمز، الرمز الطبيعي، الرمز التاريخي).

The Symbolism of the Hidden Patterns in the Poetry of Raad Zamel A Study in Cultural Criticism

DR.Ali Hussein Jalloud Abeer Hassan Makhool
Department of Arabic/College of Education for Human Sciences/University of Dhi Qar

Abstract:

The Symbol formed the main icon on which the post Raad Zamel based his critique of the dark reality as a cultural critique, He resorted nature and historical symbols to express that reality, And let the recipient understand the image he wanted to deliver, That is why the research seeks to reveal those symbols that carry hidden patterns that hide injustice, oppression, killing and wars.

Keywords:(Implicit theme, symbol, natural symbol, historical symbol).

مدخل:

شكل النموذج الضمني مكانة كبيرة في الدراسات الحديثة ، وخاصة العينة التي نحن بصدد دراستها ، ولهذا استخدم العديد من الرموز الطبيعية والتاريخية التي تبناها شاعرنا للتعبير عما كان يدور في خلده من ظلم وتظلم وقمع الحريات وتقييدها بأسلاك القوة ، لأنه وجد في هذه الرموز متنفسًا للتعبير عن آرائه المختلفة ، ولا سيما الآراء السياسية. حيث أن الاهتمام بدراسة النظم اللغوية داخل الثقافة يعطي الثقافة معناها الجوهري ، وليس المعنى الخاطئ الظاهر ، ولأن النموذج اللغوي داخل الثقافة لا غنى عنه ، لأنه أيديولوجي وأنه وحده يؤسس التواصل الجماعي والأطر. نظام الخطاب داخل الثقافة ، لذلك فقط النهج اللغوي الثقافي هو الذي يسمح بفهم أعمق للأنماط اللغوية بهويتها المزيفة المزعومة وأيديولوجيتها الضمنية الحقيقية[١] ،لذلك وجدنا الليل وتفيض دلالاته من الأنماط الخفية ، فكان ظلامه بالنسبة له واقع يعيش فيه وطنه ظلمًا واضطهادًا لا نور فيه. إن الدلالات الإيجابية التي تحملها مشحونة بدوافع ضمنية تتمثل في الخيرات الموجودة في هذا البلد والتي تضمن واقعًا من الأمان والأمن والحياة الكريمة ، ولكن الحقيقة هي عكس ذلك تمامًا إذا تم استخدام دلالات هذه الرموز للعدد الكبير. الحروب وسفك الدماء وقتل الناس العزل. يجعلهم نماذج ثقافية ضمنية مليئة بالدلالات التعبيرية والموحية لما يفكر فيه.

لم يستخدم الشاعر دلالات الرموز الطبيعية كنموذج ثقافي ضمني فحسب ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ليستخدم دلالات الرموز التاريخية ، آخذًا الشخصيات والأحداث والحقائق كتجسيد للواقع الذي يعيشه.

اولا: مفهوم الرمز

عرف الشاعر العربي في عصرنا كيف يتغلب على الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية التي منعته من التعبير عن أفكاره وآرائه ، عندما وجد في الرمز نموذجًا ثقافيًا وأداة تعبيرية ومؤثرة منحته حرية التعبير. الذات الداخلية والمشاعر العاطفية للفرد ، وقد ظهر

العنصر الرمزي بوضوح في معظم النصوص الشعرية التي تتضمن رموزًا ودلالات إيحائية مختلفة تخلق نقدًا ثقافيًا بمحتواه الضمني.

والرمز بمفهومه العام هو ((وسيلة ادراك ما لا يستطاع التعبير عنه بغيره، فهو افضل طريقة ممكنة للتعبير عن شيء لا يوجد له أي معادل لفظي، وهو بديل من شيء يصعب او يستحيل تناوله في ذاته))[٢] أو هو ((يشير الى كل انواع المجاز حيث يكون للكلمة بالاضافة الى المعنى المعجمي معنى اخر))[٣]، أي بمعنى آخر يعرف الرمز ((بانه اللغة التي تبدأ حين تنتهي لغة القصيد او هو القصيدة التي تتكون في وعيك بعد قراءة القصيدة، انه البرق الذي يتيح للوعي ان يستشف عالما لا حدود له ، لذلك هو اضاءة للوجود المعتم، واندفاع صوب الجوهر))[٤].

ومن هنا يمثل الرمز شيء خارجي ، يخاطب حدسنا مباشرة ، الا أنّ هذا الشيء لا يؤخذ ويقبل كما هو موجود فعلاً ، لذاته وإنما بمعنى أوسع بكثير . يجب أن نميز في الرمز إذن : المعنى والتعبير . فالمعنى يتصل بتَمثّل أو بموضوع ، كائناً ما كان مضمونه ، والتعبير وجود حسي أو صورة ما.فهو اكتشاف نوع التشابه الجوهري بين شيئين اكتشافاً ذاتياً غير مقيد بعرف أو عادة فقيمة الرمز الأدبي تنبثق من داخله ولا تضاف إليه من الخارج ، لأنه يقوم في اساسه على صورة حسية ارتفعت من الشئ المادي المحسوس إلى اشعاع إيقاعي ايحائي منغم ،أي إنَّ تصوير إحساس الشاعر وتجربته بوساطة إشارة إليها وتمثيلها وتمويهها في آن واحد ، كما أنَّ في ابتداعية اللغة المكثفة تغدو اللفظة بما يشبه الأسطورة في قدرتها الفائقة على بث الانفعالات الوجدانية التي لا تعد ولا تحصى.

ويبدو أنَّ الشاعر رعد زامل لا يلجأ إلى الرمز إلَّا لأنَّه مرغم على ذلك بسبب وجود عوائق سيكولوجية واجتماعية وأخلاقية فضلا عن إلى الخوف والحياء تحول دون اللجوء إلى التعبير مباشرةً عن رغباته وأحاسيسه ، وهذا ما يدعونا إلى الوقوف على التجليات الرمز التي اعتمدها الشاعر رعد الزامل في مجموعته الشعرية ، فقد وجد في الرمز نسق ثقافي مهم للتعبير عن أفكاره ومشاعره الذاتية التي تعتري نفسه ، إذ يضفي على الكلمات والعبارات

طابعاً رمزياً ترتكز فيه تجربته الشعورية وذكرياته المؤلمة التي لا يستطيع الافصاح عنها، وذلك لأنّ الرمز ترتكز أهميته في النص الشعري على السياق الذي يرد فيه ، وكيفية إفادة الشاعر من توظيفه ثقافيا بصورة واضحة في خدمة النص ، بما يكتنزه من دلالات متعددة تعمق من فنية العمل وتغني طاقاته الايحائية التأويلية .

الرمز الطبيعي:

لطالما كانت الطبيعة مصدر إلهام للشعراء، ولطالما سلبت عقولهم وافئدتهم بسحرها وجمالهاّ ،كما كانت مرفأ لقصائدهم وأشعارهم واتخذوا من عناصرها رموزا لافئدتهم الا انها هنا ابتعد عن الدلالة الجمالية وذلك باخذ ماوراء المعنى اي انه اخذ منها النسق المضمر لتعبير عن اراءه .

وقد التجأ الشاعر الى الطبيعة جاعلا منها رموزا ينتقد فيها واقعه الاليم نقدا ثقافيا مضمر تارة وظاهر تارة اخرى، نتيجة الاضطهاد الذي يعانيه كأنسان قبل كونه شاعر، وكذلك لا ريب ان الطبيعة بكل ما فيها من مكونات وعناصر تعد احدى المصادر الثرية لدى الشاعر الحديث كما وتعد رافدا من روافده الفكرية التي استقى منها معظم محاوره الفكرية التي اعتمد عليها للأفصاح عن همومه القومية والوطنية والانسانية لدعم التجربة الشعرية والشعورية معا، بكون الرمز الطبيعي ((هو ذلك الرمز الذي يبتكره الشاعر ابتكارًا محضًا أو يقتلعه من حائطه الأوّل، أو من منبته الأساس ليفرغه جزئيًا أو كليًا من شحنته الأولى، أو ميراثه الأصلي من الدلالة، ثم يشحنه بشحنة شخصية، أو مدلول ذاتي))[٥]. كما ((يشكل الرمز الطبيعي احد اهم عناصر التصوير الرمزي ،ويشكل رؤية الشاعر الخاصة تجاه الوجود يعمل على تخصيبها))[٦] ،كما أنّه يُمكن الشاعر من استبطان التجارب الحياتية، ويمنحه القدرة على استكناه المعاني استكناهاً عميقاً، مما يضفي على إبداعه نوعاً من الخصوصية والتفرد. فالشاعر إذ يستمد رموزه من الطبيعة، يخلع عليها من عواطفه ويصبغ عليها من ذاته ما يجعلها تنفث إشعاعات وتموجات تضج بالايحاءات الثقافية.

واذا تاملنا في الرموز الطبيعية الواردة في المقطوعات الشعرية نجد لها الحضور الكثيف، فقد استدعى تلك الرموز وبث فيها رؤاه وأفكاره الثقافية مثبتًا قدرة فائقة على تمثل أبعادها الدلالية والتخيليّة، فحولها إلى مركز إشعاعات لينتقد الواقع ويسلط الضوء على عيوبه، وجعل المتلقي يندفع وراء التأويل والتحليل الثقافي كما نجدها توافق وتنسجم مع مواقفه الشعرية والرؤى الفكرية .

ولقد أحسن الشاعر استخدام الرمز كنسق مضمر وتوظيفه توظيفا ثقافيا خصوصًا عندما اتكأ على الصورة المجازية لخدمة رموزه، فأتت متسمة بروئاه الإيحائية العميقة وعندما يستخدم الشاعر كلمات مثل «البحر، الريح، القمر، النجم... فإنه يستخدم عندئذٍ كلمات ذات دلالة رمزية، وربما كانت بعض هذه الدلالات، على الأقل، مشتركة بين معظم الناس، ولكن استخدامه لها لن يكون له قوة التأثير الشعري ما لم يحسن الشاعر استغلال العلاقات أو الأبعاد القديمة لهذا الرمز، وما لم يضف إلى ذلك أبعادًا جديدة هي من كشفه الخاص ،فالشاعر لا ينظر إلى الطبيعة على أنّها مجرد شيء مادي منفصلا عنه وإنّما يراها امتداداً لكيانه يتغذى من تجربته.

ومما لا شك فيه حضور الرمز الطبيعي كان واضحا وجليا في العينة المستخدمة محملا بالانساق المضمرة، وتنقسم الرموز الطبيعية في شعره قسمين: صامتة ومتحركة، من الصامتة الماء، الليل، الارض، السماء، القمر، ومن المتحركة الذئب، الكلب، الذباب، الفراشات.

يستحضر لنا الشاعر رعد زامل الليل وما يحمله من دلالات كانت كفيلة للبوح عن الفكرة التي تجول خاطره فجاء بالليل كنسقا ثقافيا للقمع والحزن اتلذي يسوود وطنه فسواده هو الوضع الراهن وهدوءه هو الحرية المقيدة الصامتة وضوءه هو فسحة الامل نحو التغيير، اذ يقول:

ارى الليل يا صاحبي

تحت راسي ينام

فاصحو مع الحزن طفلا

وقد جف دمعي

وسالت بقايا الكلام [٧]

عمد الشاعر في مقطعه الشعري اعلاه الى استعمال الليل نسقا ثقافيا للتعبير عن المعاناة والمأساة التي يعيشها الشاعر ولا يستطيع البوح عنها وانما اكتفى ان يجعلها في وجدانه حتى باتت تتزاحم في صدره نتيجة ما يلاقيه في وطنه من اضطهاد وقمع حتى ساد الصمت واصبح سيد الواقع ، ذلك الواقع الذي طالما رفضه وانه اخذ من رمز الطبيعة الليل المعنى المضمر وهو الصرخة الخفية لواقعه ، لذا نجد شاعرنا اخذ من لون الليل السواد رمزا للتعبير عن عواطفه وما يلاقيه ابناء موطنه من حاضر محطم ومستقبل مجهول .

كما نجد حضور الرموز الطبيعية في مقطع اخر للشاعر اذ يقول:

انا الحوذي

الذي سرقوا عربته الغيوم

لا انذركم بالجفاف

ولا ابشر بالمطر

ولكني بوجه

كل ليل سأظل صارخا:

ان ارخ سدولك

ايها الليل

واسكب زيتك المسمى بالظلام

عسى ان تتوهج مصابيح

احلامنا المطفأة[٨].

في هذا المقطع يبدأ رعد زامل في رسم صورته من الواقع غير انه لا يلبث ان يتجاوز الى المجرد حيث ينطلق من موضوع حسي محدد وهو الحلم فالكل يحلم بأشياء ربما تتحقق

الا هو فقد سرقت احلامه وليس وصف الحلم هو المقصود هنا وانما ما يتركه هذا الحلم في النفس من اثر وذلك من خلال الربط غير المتوقع بين عناصر حسية لا تجانس بينها استقاها شاعرنا من اوصاف عيدة اضفت على الصورة ظلالا من الغموض والغرابة ان ربط الهدف من الحلم بالعربة واسناد اعادة الصواب لنفسه (انا الحوذي الذي سرقوا عربته الغيوم) وربط المقطع بعسى التي زادت المقطع تغريبا (عسى ان تتوهج مصابيح احلامنا المطفأة) كلها عناصر تضافرت برمتها لتوحي بحالة التيه الناتجة عن فقدان الهوية التي يحاول الشاعر ان يتجاوزها بالبحث عما يضمن له الاستمرارية والبدأ من جديد (لا انذركم بالجفاف ولا ابشر بالمطر ولكني بوجه كل ليل سأضل صارخا) والتخلي عن الخوف غير المتناهي والامجدي معا فليس ثمة ما سيجنيه من ورائه.

كما نجد الشاعر يلجا الى استعمال رمز اخر من رموز الطبيعة وهو القمر ليعبر من خلال دلالاته في النصوص عن واقع مخيف ومغلق اذ يقول:

يا الهي
ما الذي يحدث
لا بد ان احدهم
قد طعن القمر
او ان الطيور بكل سلالاتها
قد ذبحت في الاعالي
والا بماذا
افسر هذه الدماء
التي في غير موسمها
تسيل مدرارا
وان يصدق الظن
فأنها الغيوم
تلك التي

تكونت من دماء قتلانا

وقد بدأت تفشي

أسرارهم[٩].

إنَّ اول مما يسترعي انتباهنا في هذا المقطع هو ورود جمل تحتوي على تساءلات كثيرة وتبدو في ظاهرها بسيطة وكأن الشاعر يكتفي برصد حالة معينة او وصف معين ولكن سرعان مايطالعنا الرمز من وسط هذا المقطع ملفعا في هذه الاستعارة (لا بد ان احدهم قد طعن القمر) ليكشف عن المعنى الخامد خلف تلك البساطة المفتعلة ويرسل باشعاعات في اوصال النص فيصبح بوصلة توجه مساره وتدعونا الى التأمل في ابعاده ففي هذه الاستعارة تستوقفنا طبيعة العلاقة التخييلية التي تتحقق بأسناد الطعن الى القمر التي ترمز الى طعن من نوع خاص الطعن يتعدى الحيز المكاني الضيق الى كل الامكنة التي يطالها ضوء القمر تلك الاماكن التي اصبح لونها احمر من دماء ابناء وطنه حتى اصبحت غيوم تحجب ضوء القمر والذي يريد به النور والامل والحياة.

ويستعمل الشاعر رمزا اخرا من رموز الطبيعة وهو البحر رمز الهجرة والمجهول اذ يقول:

في البحر

مررت بغرقى يشخرون

قلت: ما بالكم؟

قالوا: نواصل العيش تحت الماء

ما دام الدم يغطي

ثلاثة ارباع الكرة الارضية[١٠]

التجأ الشاعر الى استعمال دلالة البحر للتعبير عن الحالة التي وصل اليها الوطن فاستمرار الدماء التي اغرقت العالم بصورة عامه ووطنه بصورة خاصة تجعل الحالة لا تطاق

بان تجعل الوطن كتلة من دمار وهلاك وخوف مما تفتح بوابة من نافذة الخلاص بالهجرة الى المجهول عبر البحار فهم اموات لا وجود الى الحياة فالنتيجة واحدة وهي الهلاك.

وفي مقطع اخر يوظف البحر توظيفا اخر فهو رمزا للوطن ذلك الوطن الذي يدفع ابنائه ارواحهم من اجل اعادة الامن والحياة فيه اذ يقول:

لقد جف في البحر صوتي
ولم اجن من رحلة الماء
غير النزيف
تمر الفصول
وكل الفصول بمنفاي ريح
تهب بطعم الخريف
تعبت من النوم
تعبت من الصحو
والانتظار
تعبت من الليل ان جن
يجن قبيل انطفاء النهار
تمر الليالي على حلم تحت رأسي
مخيف
ترى
بم يحلم من لا فراش له
غير هذا الرصيف[١١]**؟**

جاء الشاعر في مقطعه الشعري بعدة رموز طبيعية تمثل انساقا ثقافية فنجد البحر رمزا للوطن (لقد جف في البحر صوتي) وهو دلالة عن اليأس وان حال وطنه لايمكن تغييره فهو كمن يصرخ تحت الماء لا احد يسمعه، كما نجد استعماله لليل وهو رمزا للظلام الذي

سرعان مايطفئ النور والذي عبر عنه بالنهار بقوله: (تعبت من الليل ان جن يجن قبيل انطفاء النهار) أي ان وجود الظلام مستمر وهذا تأكيدا ليأس الشاعر وذلك عن طريق تكرار الفعل جن تارة بالماضي وتارة اخرى بالمضارع دلالة على الاستمرار في الحاضر والمستقبل ، ليختم مقطعه ب(ترى بم يحلم من لا فراش له غير هذا الرصيف) وهو عدم البشرى بمستقبل جميل وذلك لان الحاضر يؤكد على ذلك.

الرمز التاريخي

إنَّ النصوص الشعرية الخالدة هي تلك النصوص المؤثثة بالصور الخلابة والاستعارات اللافتة والرموز الدالة والمفتوحة على كل القراءات، بالإضافة لاحتوائها الأدائي لمعطيات التاريخ ودلالات التراث التي تستدعيه وتخلصه من لحظته التاريخية، وتنفخ فيه روحا جديدة، حسب المعطى الراهن والمدعى الشعري.ف ((الأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية ليست مجرد ظواهر كونية عابرة، تنتهي بانتهاء وجودها الواقعي، فإن لها إلى جانب دلالتها الشمولية الباقية، والقابلة للتجدد – على امتداد التاريخ – في صيغ وأشكال أخرى)) [١٢].

إنَّ توظيف الرموز التاريخية في شعرنا العربي عرف في المشرق العربي بشكل لافت، ولعل ذلك يعود إلى الانكسارات وخيبة الأمل التي منيت هبا شعوب العالم العربي، والمحاولات الفاشلة للنهضة واستعادة أمجاد العرب ، إذ رزحت معظم البلدان العربية تحت الاستعمار والانتداب الأوربي بعد سقوط الدولة العثمانية، وما لحقه من محاولات جادة بغية مسخ تاريخها وهويتها واستلاب مدخراتها الثقافية والمادية، بالإضافة إلى زرع الكيان الإسرائيلي في جسم الأمة، الذي شكل وعيا قوميا موحدا لدى شعراءنا الذين أشادوا بالقضية، واستخدموا القدس كرمز وقناع من أجل استنهاض الشعوب، والدفاع عن الشرف المسلوب، فإن الشاعر يختار من شخصيات التاريخ ما يوافق طبيعة الأفكار والقضايا والهموم التي يريد أن ينقلها إلى المتلقي لقد عرف الشعر العراقي هذه الميزة الفنية، وهي توظيف الرموز التاريخية، والتي تظم الرموز الدينية والتراثية والسير الشعبية، وأسماء الشخصيات التي كان لها أثر بارز في تاريخ

الإنسانية، والأماكن التي اقترنت بأحداث عظيمة في التاريخ، ولكن غلب عليها استدعاء التراث الديني من قصص الأنبياء والشخصيات التي ورد ذكرها في القرآن الكريم التي أضفت على الصورة الشعرية طابعا من الحيوية والأصالة وقد سجلوا بهذا الاستخدام تطورا ملحوظا في الصورة الشعرية، ولا سيما استخدامهم للرمز والأسطورة وهو أمر لم يكن معروفا من قبل، غير أن استخدامهم للرمز لم يكن ناضجا ولا قويا في جميع هذه الأعمال، بل لا أظنني مبالغا إن قلت أنه قلما كان موفقا لأن أغلبية هؤلاء الشعراء لم يتعدوا في الغالب الرمز اللغوي بطريقة مسطحة .

ومن طبيعة الرمز التاريخي في شعر رعد زامل نجد استدعاء الشخصيات وتوظيف رموزها توظيفا ثقافيا إذ يختارها بعناية فائقة ، ويحقق هدفا مزدوجا؛ بحيث يمنح تجربته نوعا من الأصالة والشمول عن طريق ربطها بالتجربة الإنسانية في معناها الشامل، ومن ناحية أخرى يثري هذه المعطيات بما يريد ايصاله الى المتلقي وهو ما وراء النص ، ويكسبها حياة جديدة ،وكانت الشخصيات الدينية واضحة وموجودة في نصوصه الشعرية والتي استعملها كنسق ثقافي اراد من خلالها نقد الواقع وايصال ما يكمن في داخله، وكانت مصدرا ثريا من مصادر إلهامه، ومفتاحا من مفاتيح عالمه الشعري، فنجد شخصيات دينية متمثلة بذكر قصصهم مثل (ادم، ابراهيم، اسماعيل، يعقوب ،يوسف ،الحسين ...) قد وظفها زامل في سياق الموقف المناسب فكل من النبي والشاعر الأصيل يحمل رسالة إلى أمته والفارق بينهما أن رسالة النبي رسالة سماوية، وكل منهما يتحمل العنت والعذاب في سبيل رسالته ،ولذلك أيضا دأب شعراؤنا المعاصرون على استعارة شخصيات الرسل ليعبروا من خلالها عن بعض أبعاد تجربتهم المعاصرة.

ويستدعي زامل قصة نبي الله يعقوب لدلالة على الحزن، اذ يقول:

في كل يوم
عند الصخرة
أذبح حلما من أبنائي

في كل ليلة
خلف التل
أدفن فكرة من بناتي
في كل واد
عند العشب
أضع السكين على قلبي
وعندما أهم به عليه
لا أحد يقول لي:
انا فديناه بكبش هزيل
ولو ذبحته وأنتهى الامر
فلا أحد سيقول لي:
لقد صدقت الرؤيا يا رعد زامل[١٣]

إنَّ استحضار رموز الشخصية وقصص الانبياء في نصوص الشاعر رعد زامل انما تشكل نسقا ثقافيا اراد الشاعر من خلاله التعبير عن فكرة معينة مكبوته في داخله لايستطيع البوح عنها بصورة مباشرة لذا نجد فكرته مبطنه بالرموز والسيمياء وان تفكيك هذه الرموز يوصلنا الى الفكرة الحقيقية التي اراد الشاعر رسمها في ذهن المتلقي ،وان فكرة النص المبطنة تدور حول التضحية التي لا جزاء لها فالشاعر كابناء وطنه يضحون من اجل كرامته وعزته لكنهم لا ينالون الجزاء العادل من هذه التضحية فهم مهمشون في وطنهم تظهر عليهم ملامح الغربة والاغتراب وما اصعب الاغتراب عندما يكون اغترابهم في اوطانهم ففي قوله (في كل يوم عند الصخرة اذبح حلما من ابنائي) انما هو اشارة لى الخضوع واليأس والتنازل عن الطموح والاحلام بينما يكمن النقد الثقافي ذروته في قوله (فلا احد سيقول لي: لقد صدقت الرؤيا يا رعد زامل) ،فهنا اشارة واضحة من الشاعر باستبداد السلطة وجشعهم وان النتيجة واحدة لديهم الحروب والقتل والدمار ويدفع ثمنها عامة الشعب الفقراء من ابناءه.

كذلك يأتي بقصة اخرى في مقطع شعري اخر ليأكد للقارئ حزنه وويصور له معاناته التي لا يستطيح البوح عنها الا رمزا وبانساق مضمرة تفهم في النص بعد التمعن وادراك ماوراء الظاهر ،اذ يقول:

كانت الاطلال بالامس
ابوابي التي
ما ان اقف عليها
او اطرقها بالكلام
حتى تفتح القصيدة ذراعيها
وتقول لي: هيت لك
اما اليوم فليس لي
ما اقف عليه غير المرايا
ماثل امامها
اتبادل اطراف الدموع
مع الرجل الذي
يطالعني فيها
والذي كلما سألته
كيف ابيضت
عيناك من الحزن؟
يرد على:
مثلما جفت عيناك من
الذهول
وانت تحدق
في بئر الغياب[١٤]

إنَّ استدعاء الشاعر لقصة نبي الله يعقوب في نصه الشعري انما هو نقدا ثقافيا للوضع الذي اصبح عليه وطنه وهو في مقارنة بين الماضي والحاضر ففي قوله (كانت الاطلال بالأمس ابوابي التي ما ان اقف عليها او اطرقها بالكلام حتى تفتح القصيدة ذراعيها وتقول لي: هيت لك) ،رسم الشاعر معاناته وهو يذكر كيف افكاره تتزاحم لتعود به الى ماض مشرق حيث كانت الاحلام مقبولة والفكرة موجودة تمارس حريتها في وطن يحترم ابناءه ثم يعود ليستدرك واقعه بقوله (اما اليوم فليس لي ما اقف عليه غير المرايا ماثل امامها اتبادل اطراف الدموع مع الرجل الذي يطالعني فيه والذي كلما سألته كيف ابيضت عيناك من الحزن؟ يرد على: مثلما جفت عيناك من الذهول وانت تحدق في بئر الغياب) وهنا يكمن النقد الثقافي اذ ان الشاعر وضح ما هو عليه وطنه الان كما وضح كمية الالم والحزن الذي يعانيه ونموذج اخر يقول فيه:

لم اكن عاريا قبل الهروب
ولكن العواصف
تسلب الناس
اشياء هم
انظري الى الريح
كيف تقلبني ذات اليمين
وذات الضياع
انظري انها
تعصف بروحي
مثلما تعصف بطائرة من ورق
ثم انظري
كيف اضيع
مثل طفل
لا اثر

له بعد العاصفة

سوى الخيط

الذي كان على يده

ثم انقطع[١٥]

اتخذ الشاعر رعد زامل من استدعاء القصة القرانية في شعره نسقا ثقافيا يبث عن طريقه فكرته المضمرة وايصالها الى المتلقي بالفاظ جزلة وعبارات متينة قادرة من ايصال التجربة الشعورية عن طريق توظيف الانساق الدينية ،فاستعمال الشاعر للفظة (تقلبني ذات اليمين) والتي وردت في القران في قوله تعالى ((وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه))[١٦] ، فالمعنى للاية يدور حول اصحاب الكهب وكيف ان كل من ينظر اليهم يهابهم ، بينما الشاعر وظفها في شعره للاشارة الى خوف الشعب من الحكام .

اما استدعاء بعض الشخصيات الأدبية وتوظيفها في نص معاصر، يهدف بالأساس إلى معالجة قضايا تتعلق بالحرف والكلمة والأدب بشكل عام، إذ نجد كثيرا من شعراءنا من وظف شخصيات مثل. (المتنبي، وعنترة بن شداد، وامرؤ القيس، وأبو فراس الحمداني، والخنساء...الخ) وغيرهم من الرموز والقامات الأدبية التي كانت لها بصمة في صيرورة الحركة الأدبية في العصر الذي عاشته، مصبغين عليها الدلالة التاريخية الحقيقية التي كانت تكتنفها ،و أحيانا تستدعى الشخصية الأدبية وتفرغ من محتواها الرمزي التاريخي، وتشحن بدلالة مغايرة تماما، يعمد إليها الشاعر قصد تعرية الواقع الأدبي وإجراء مقارنة بين البارحة واليوم، وإن هذا النوع من الشخصيات لا نكاد نعثر عليه في الاعمال الشعرية لرعد زامل، إلا بعض الشخصيات التي وظفها الشاعر في مناسبات دعته لاستحضارها في نصه، وهي قليلة جدا، و متفاوتة الدلالة، باهتة البث والإيحاء ،فتوظيف هذه الشخصية الشعرية لا ينهض كي يؤسس لرمزية تاريخية تحمل دلالة الحضور والغياب، وإنما هي خواطر ووجدانيات شاعر اتجاه صديقه إذ يقول:

بالسكين ذاتها

السكين التي
سال لعابها
على جسد التفاح
ساقطع اذيال خيبتي
واقف طويلا
على المنابر
مفلسا كعادتي
ومفلسا كفم
يخلو من الشتيمة
وكي لا اموت
وانا موص بينكم جنفا
فحصاني لعبد الامير جرص
شرط ان يصل
الى عروة ابن الورد
وقميصي
لعبد الرزاق عبد الوهاب
شرط ان لا يقطف
الوردة من القميص
اما قصائدي
فانفقوها
على ربة الشعر
واطفال الجنوب[١٧].....

نجد الشاعر رعد زامل في نصه الشعري هذا قد وظف شخصيات ادبية قديمة وحديثة متمثلة ب(عروة بن الورد ،عبد الامير جرص ،عبد الرزاق عبد الوهاب) ، والشاعر باختياره

لهولاء الشعراء انما جمع بين الفقر والغربة والمرض ، فهنا ثمة رسالة اراد الشاعر ان يوصلها الى المتلقي مفادها انه لا يملك في وطنه سوى المرض والفقر والغربة والالم والوجع الذي سوف يتركه لابناء وطنه ، ونجد الشاعر هنا قد ابدع في استخدام رموز الشخصيات الادبية ليبين للمتلقي ما يعانيه الشاعر وينقل تجربته الشعورية للمتلقي بكل صدق واحساس ، فالشاعر هنا كغيره من الشعراء قديما وحديثا سوف يموت وتموت معه الاحلام وتدفن معه الاوجاع لكن مايبقى خالدا هي قصائده وتصويره لمعاناة شعبه في ظل سلطة جائرة طمست كل معالم الحياة.

وفي قصيدته (مجنون مثل هاملت)[١٨] نجده يقول:

عد ادراجك الى المقبرة
انا هاملت...
الذي يرجوك يا ابت
فالحراس
يحتشدون في الطرقات
في مثل هذه الساعة
والعسس يوصدون
بوابة الاحلام.

إنَّ استدعاء الشاعر لشخصية هاملت وانصهاره مع بطل مسرحيتها فاصبح الشاعر والبطل شخصا واحدا انما لأجل صرخة عند الشاعر ضد الظلم والاضطهاد والاستبداد الذي يعانيه من خبراء الدولة الذين يبثون اليأس ويقتلون الاحلام ويصبح الامل حلم ميت لا وجود له ، فيتمرد الشاعر ويعلن عصيانه عن طريق هذه الشخصية المنتقمة من الوضع المستبد صارخا بوجود الامل الذي هو كفيل بتحقيق الاحلام في قوله (انا هاملت) ،فهو ذلك البطل الثائر المنتقم لأخذ ثار ابناء شعبه من السلطة الجائرة.

وفي نموذج اخر يقول:

لقد احرق ابي المكتبة
ليس لانه
يكره ديستوفسكي
بل لانني اطلق صوتا عاليا
في الليل
منذ دخانها
وانا اعوي على الارصفة
مدعيا ان منزلي
تسد نوافذه العناكب
وبابه لا يفضي اليه
اتحدث – الان – من قبري
اطلق صرخة مدوية
كلما تذكرت ابي
وهو يرميني من النافذة
ويلاحقني بقنابل
مثيرة للضحك[١٩]

إنَّ ما يعنينا في هذا النص هو السياق الثقافي الذي تخلّقت من خلاله المرجعية التاريخية في رحى النص الذكوري ، فهذا النص يعكس الوظيفة أو المكانة السيوسيولوجية الرافضة للحرية ، ومن ثم فالموروث التاريخي يترك بصماته في التكوين النفسي الذي يُسهم في تهميش النفس الانسانية ، فالنص يضمر في بنيته فلسفة الذات اتجاه الحياة من خلال هذا النسق فهو يوصل لبيئة تلف حبالها حول خناق الذات وطمس العلم وتفشي الجهل، فعن طريق المركز /احرق ابي المكتبة/ صوتا عاليا، الذي أصبح قوة أساسية ومحركاً كونياً لأحداث هذا النص، ثم يعطي صورة عكسية للذات المهمشة/ الشاعر/الحرية/العلم وهي تريد إعلان مسكوتٍ ظلّ محتكرا طوال الزمان، وهو أنّ الحرية دائما تكون ضحية للسلطة التي

تجعل الذات محركا للإرادة السلطة، من هنا يضعنا النص وجهاً لوجه أمام ثقافة القمع لكن بطريقة أخرى تتمثّل بتقديمها الذات البشرية مسلوبة الارادة مهمشة .

ومن هنا جاء خطاب الشاعر عن الذات من خلال النص للكشف عن عوالمه السايكلوجية (النفسية) وما يعتلج في صدره من أحاسيس ومشاعر عن طريق ذكر شخصية ادبية كبيرة متمثلة بدسكوفسكي ، فهو يرغب في أنْ يرسم لنا صورته السلبية في نظر ثقافة السلطة ، من خلال تركيزه على الصفات المادية والمعنوية التي يتسم بها فهو على الرغم من كونه (مثقف ، واديب ، وشاعر،وصاحب نتاجات كثر ، لم يخضع لهذه الايجابيات وأنّه لم تشفع له عند المنظومة الثقافية.

ونجد استدعاء الشخصيات في قصيدته التي بعنوان (خسوف الضمير)[٢٠] ،والتي يقول فيها:

غدا ...

غدا .....

غدا عندما نصل الى الينابيع

سيفرش لنا

الملائكة الارض بالعشب

ويسألوننا عن الحياة

كيف طويناها

هذه الصحراء

التي لاخيمة لنا فيها

ولا امل

ويوم نصمت – كعادتنا –

سيجيبهم ابو ذر قائلا:

كان الجفاف

يخيم على الازمنة

وكان الخريف يسلمنا الى الخريف

وكنا كغرباء

في محطة

ولان الوجوه تتساوى

في المحطات

فلم تكن سيمانا في وجوهنا

ولكنها كانت

في اخضرار الضمير

يتناص الشاعر رعد زامل في مقطعه الشعري مع شخصيات تراثية تمثلت بابي ذر الغفاري ،وما يمثل من باب الحكمة ففي قول الشاعر (ولكنها كانت في اخضرار الضمير) ،أي ان الناس متشابهون لكن الفرق الوحيد ان اصحاب الدولة قد باعوا ضمائرهم بينما الفقراء فيبيعون كل شيء الا ضمائرهم وحرصهم على وطنهم الذين حرموا من خيراته ، ونجح الشاعر في ذكر الفكرة باتخاذه لابي ذر الوسيلة باعتباره حلقة وصل ناقلة لفكرته .

كما يقوم الشاعر باستحضار الحدث التاريخي، من لحظته التي وقع فيها، إذ يستدعيه بكل ما يحمل من ثقل ودلالات ماضية، من أجل تكثيف دلالة النص الجديد، وتتنوع طرق الاستدعاء، حيث نجد استحضارا للحادثة التاريخية بما يدل عليها مثل(كلمة، أو إسم علم، أو علامة مميزة، أو رقم ارتبط بالحدث المستدعى، أو شهر، أو سنة..) حيث تصبح رمزا دالا على تلك الحادثة، كذلك يستحضر الحدث عن طريق التناص، إذ يوظف الشاعر في قصيدته جملا ارتبطت تاريخيا بحادثة معينة في نصه سواء بكتابة العبارة المتناص معها حرفيا أو بالمعنى فقط، ونجد أيضا توظيفا آخر للحدث عن طريق الفكرة الجوهرية للواقعة التاريخية، والتي تحيل القارئ إلى الحادثة الأصلية مباشرة. والشاعر أثناء تعاطيه مع هذه الأحداث لا يلزم منه أن يوظفها كما حدثت في سياقها التاريخي ولا حرج على القصيدة الرمزية إذا تخلى

الشاعر عن البناء المنطقي ليواجه تتابعا انفعاليا ذا منطق خاص يعتمد على ارتباط عاطفة ذات مغزى بالرموز المستخدمة. ذلك أن ألوانا وأشياء وأسماء وإشارات إلى أحداث ذات قيمة عاطفية يمكن الاعتماد عليها في تجربة رعد زامل الرمزية، نجده يوظف الكثير من الأحداث التاريخية وخصوصا ما تعلقت بتاريخنا العربي والإسلامي، يستحضرها بصيغ مختلفة شاحنا إياها بدلالات متنوعة حسب الموقف والمدعى الشعري. يقول الشاعر:

كلما مررنا بكربلاء
ونتمرغ بالحزن
كلما تذكرنا الحسين
غرقى على ساحل الجوع
غرقى والعالم اشبه
بصياد
يجلس على الساحل الاخر
وقبل ان نبتلع الطعام
يصطادنا من الافواه[٢١]

هذه الحادثة التي يستحضرها الشاعر تعج في المتصور التاريخي والمعتقد الديني الإسلامي حادثة سلبية بما فيها من تجرأ وانتهاك لحرمة ال بيت رسول الله.

من هنا جاء اختيار الشاعر لموضوعات (الإنتهاك، والحرمة، والظلم) كسلسلة من الأنساق التي تشكَّل عالمها الواقعي ، فالأبيات تحمل رسالة لإنتاج معيارية إجتماعية وسياسية(في الحكم) تجاه المجتمع وقدسية المكان الذي تنتمي إليه ، فالنص هذا يدور حول(فكرة الصراع) مع المفاهيم المبثوثة في الفكر الجمعي وعلى رأسها مفهوم (الظلم الإجتماعي) الذي أخذ يتوجس في ذهن الشاعر، من هنا كان توظيفه للإمكانات المعرفية والثقافية ؛ ليكرس بها عالم الصراع وإبرازها كمعززات وحوافز داخل النص ، فالشاعر ينظر إلى الواقع

كصورة تتجلى فيه فاعليته التي تعبر عمّا يحمل من رؤى انطلاقاً من ثيمة المكان المقدس (كربلاء) ، إذ يخيم المكان على رؤية الشاعر فيضعه في الإنتقال والتحول.

وفي نص اخر يقول:

تحت المياه
وفوق المياه
ومن اجل المياه
مع ذلك ...
هناك مايدعو الى انتظار غودو
او مبعوثه الشخصي
على اقل تقدير لانقاذ
اسماكنا من الغرق[٢٢]

هذا المقطع الشعري يعيد بنا الذاكرة ويعودها الى الوراء حيث احداث التسعينات عندما قامت السلطة بتجفيف مياه الاهوار وجعها غير صالحة للعيش فقضوا على الاف الاسماك والتي تشكل ثروة حيوانية للدولة ومصدر معيشة لاهلها ، فذكره لهذه الحادثة انما ليبين ظلم السلطة لهذه المنطقة بصورة خاصة ولاهل الجنوب بصورة عامة.

وفي مقطع اخر يقول:

قبيل الولادة بصرختين
رأيت احدهم
يمسك الشمس
وبذراعه الطويل
يرغمها على الافول
من حينها ...

وانا في عتمة اخوض
كضفدع في مستنقع
ولا شيء يربطني بكم
سوى لزوجة الوجود
في سنة ١٩٩١
احببت ضفدعة هناك
وقد كان
يسحرها نقيع حنجرتي
لكنني كلما
دعوتها الى الافق
قالت:
هيهات ذلك هيهات
فلقد تزوجتك الحرب
وعقدت قرانها عليك[٢٣].

يستمر الشاعر في عرض الاحداث التي حدثت في التسعينات وكمية المأسي التي عانى منها الشعب في ذلك الوقت ، ففي مقطعه الشعري هذا يذكر لنا الحروب التي حدثت في التسعينات وتحديدا (١٩٩١) ،ورسم للقارئ كل تفاصيل وحيثيات الحروب وكأن القارئ عاش احداث ذلك الزمان والمكان .

كما ويعد المكان أحد مكونات الرمز التاريخي في تجربة رعد زامل، إذ يستدعيه أحيانا بدلالته العادية ليعبر به عن موقف نفسي، فلا يكسبه أي طاقة إيحائية تحوله من مجرد فضاء مكاني إلى رمز مشع بالدلالة، وأحيانا نجد الشاعر في تعاطيه مع بعض الأمكنة يستدعيها ثم يجردها من دلالتها الطبيعية المعروفة هبا، ويشحنها بدلالة جديدة حيث تصبح طيعة في لغة الشاعر الرمزية، يوظفها حسب ما يقتضيه سياق النص، وربما يوظفها –الأمكنة– من دون أن

يذكرها بالاسم، بل بما يعبر عنها من خلال السياق أيضا كما يقول يونج ((الرمز وسيلة إدراك ما لا يستطاع التعبير عنه بغيره، فهو أفضل طريقة ممكنة للتعبير عن شيء لا يوجد له معادل لفظي، هو بديل من شيء يصعب أو يستحيل تناوله في ذاته))[٢٤] ،ومن بين جملة الرموز الدينية المكانية التي وظفها الشاعر رعد زامل في نصوصه الشعرية نجد (غزة وغرناطة وكربلاء) ، اذ يقول:

كل شيء قد ضاع
غرناطة بالامس
واليوم غزة
بينما في
دهليز تأريخنا المجيد
وبعد كل قمة
ثمة طفل يصرخ
الغوث يا ... جداه
اغثني ياصقر قريش
ولكن الصقر
كعادته لا يهبط الى القمم
ولا يمد يد العون والجناح
وان مدهما
فليس فيها سوى
ريشة واحدة
ريشة لا تكفي
لتدوين هذا الخراب[٢٥].

نجد الشاعر رعد زامل قد وظف المكان في نصه الشعري لكي يبعث فكرة معينة الى القارئ وذلك من خلال تشابه الاحداث بين تلك الاماكن وما يريد ان يوصله الشاعر ، فنجده اختار غزة لما فيها من ظلم وحزن ودمار ، وان اختياره لها انما تعبيرا عن واقعه الاليم المدمر ، اما غرناطة فهي بلد الجمال والتفائل والحياة الجميلة ،وهذا اشارة الى تفائل الشاعر بمستقبل جميل يزيل ظلمة الحاضر .

نتائج البحث:

١- إن الشاعر رعد زامل يضفي على الكلمات والعبارات بعداً رمزياً ترتكز فيه تجربته الوجدانية وذكرياته المؤلمة التي لا يتمكن من الافصاح عنها، وذلك لأنّ الرمز تتضح أهميته في النص الشعري على السياق الذي يرد فيه ، وكيفية إفادة الشاعر من توظيفه ثقافياً بصورة واضحة في خدمة النص ، بما يكتنزه من دلالات تأويلية متعددة تعمق من فنية العمل الأدبي وتغني طاقاته الايحائية التأويلية .

٢- إن توظيف الرمز في شعر رعد زامل بما يوافق طبيعة الأفكار والقضايا والهموم التي يريد الشاعر أن ينقلها إلى المتلقي ولاسيما، توظيفه الرموز التاريخية، والتي تظم الرموز الدينية والتراثية والسير الشعبية، وأسماء الشخصيات التي كان لها أثر بارز في تاريخ الإنسانية، والأماكن التي اقترنت بأحداث عظيمة في التاريخ.

٣- إن الشاعر رعد زامل يوظف في نصه الشعري جملا وعبارات ارتبطت ارتباطا تاريخيا بحادثة أو واقعة معينة في نصه سواء بكتابة العبارة المتناص معها حرفيا أو بالمعنى فقط، ونجد أيضا توظيفا آخر للحدث أو الواقعة عن طريق الفكرة الجوهرية للواقعة التاريخية ذاتها.

الهوامش

(١) ينظر: قراءة وسؤال الثقافة، عبد الفتاح أحمد يوسف ، عالم الكتب الحديث، ط١ ،٢٠٠٩م: ٩١-٩٢.

(٢) مقدمة في نظرية الادب، شايف عكاشة، ط١ دار المعارف، مصر :ج٢ ،٨٥.

([٣]) الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي ،الولي محمد، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠م :١٩٢.

([٤])البنيات الاسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث ،مصطفى السعدني، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٨٧: ٧١.

([٥]) بدر شاكر السياب شاعر الوجع، بطرس انطونيوس، المؤسسة الحديثة للكتاب، ط١، ٢٠٠٣م: ١٠٦

([٦]) الرمز الشعري لدى محمود درويش ،اغيال رشيدة ،مجلة كاملة.

([٧]) رعد زامل الاعمال الشعرية١٩٩٩-٢٠١٩، دار السطور للنشر والتوزيع ، العراق – بغداد، ط١، ٢٠٢٠: ٢١

([٨]) المصدر نفسه: ٨٣

([٩]) رعد زامل الاعمال الشعرية:٢٤

([١٠]) المصدر نفسه: ١٠٥

([١١]) رعد زامل الاعمال الشعرية :١٠١

([١٢]) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، علي عشري زايد، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٩٧م :١٢٠

([١٣]) رعد زامل الاعمال الشعرية :٥-٦

([١٤]) رعد زامل الاعمال الشعرية:١١٥-١١٦

([١٥]) رعد زامل الاعمال الشعرية:١٨١-١٨٢

([١٦]) الكهف:١٨

([١٧]) رعد زامل الاعمال الشعرية: ٢٥-٢٦

([١٨]) المصدر نفسه:٥٥

([١٩])رعد زامل الاعمال الشعرية : ٦١-٦٢

([٢٠]) المصدر نفسه : ١٢٩-١٣٠

([٢١]) رعد زامل الاعمال الشعرية: ٢٩

([٢٢]) المصدر نفسه :٤١

([٢٣])رعد زامل الاعمال الشعرية: ٥٠-٥١

([٢٤])الصورة الادبية ، مصطفى ناصف، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع،ط١ ، ١٩٩٦م:١١٥٣.

([٢٥]) رعد زامل الاعمال الشعرية : ١١٠-١١١